

العلامة السيد ابو عدنان : المرأة الإنسانية في مدرسة الإسلام السيدة زينب (ع) نموذجاً

تكريم المرأة في الإسلام: قال ابن الأثير، وهو قطب من أقطاب مدرسة التاريخ: وكانت زينب امرأةً عاقلةً لبيبةً جلةً ([2]). اسمها زينب، وهي زينة النساء، وهو اسم علم مؤنث، والزينب: نوع من الشجر، حسن المنظر، طيب الرائحة، وبه سميت المرأة إذا كانت على حظ من الحسن والجمال. المرأة شريكة الرجل في قضية التكريم من قبل الله سبحانه وتعالى، وليس من حق الرجل أن يبتزها هذا الحق، أو يصادرها هذه المكرمة من قبل الله سبحانه وتعالى، فكما كرم الله الرجل، كرم المرأة كذلك في بنائها المادي، وكذلك فيما أودع فيها من ملكات معنوية. والأمم تختلف في قراءتها للمرأة بحسب ما تمتلك من رصيد ثقافي وحضاري، فالمرأة في الشرق لها حظها، وفي الغرب لها حظها، منذ قديم الأزمنة، فهي تتقدم أو تتأخر بقدر ما يمارس الرجل من السلطة والإلغاء تارة، أو التعزيز والتكريم تارةً أخرى. وقد يكون الرجل هو الرافع للمرأة أن تتبوأ موقعها في الخارطة العامة من بناء الكون، وقد يكون على العكس من ذلك، ساحقاً لكرامتها، منتهباً جميع الحقوق التي ثبتتها الشريعة لها. قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ، وَحَمَلْنَا ذَنَابَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ ([3]). فهم كمكوّن مشترك لهم الأفضلية على الكثير من مخلوقات الله سبحانه وتعالى في عوالم السماوات والأرض، ولم يكن التكريم للرجل حصراً، إنما كان للرجل والمرأة على حدٍ سواء. لذلك نستغرب أن نجد البعض اليوم يحاول أن يتجاوز الحدود، ويسقط ما في ذهنه من قراءة سلبية، على المشهد الإسلامي في ثوابته الأصيلة، فالآية القرآنية قطعياً الصدور، صريحة الدلالة لمن كان يمتلك الرؤية القرآنية متجرداً عن جميع الحسابات، أما من كان بخلاف ذلك فهو وما هو عليه، ولسنا عليهم بمسيطرين. يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ ([4])، ويقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ([5]). قد يتصور البعض، ويُصور، أن الغرب هو أول من يحارب الكراهية التي باتت تنتشر وتضرب في جميع المفاصل، وما حصل في نيوزلندا شاهد على ذلك، إلا أن الأمر على العكس من ذلك تماماً، فالإسلام هو أول من نبذ الكراهية حتى في اختيار الدين والمعتقد، ومدّ البساط، وترك المساحة كافية لمن يريد أن يعتنق أو لا يعتنق. هذا هو الإسلام في مبدئه الأول، وعلى أساس ذلك حصلت المنطلقات في جميع الاتجاهات. إن التوأمية بين الرجل والمرأة هي أساس البناء الإنساني، فلا نتصور أن هذا الكون يعيش الاستقرار والسمو

عَلَيْكُمْ رَقِيبًا [11]). فإِ ا في النساء، وأنتِ أيتها المرأة أيضاً: لا تكوني
حذّانة منّانة طنّانة، يأتيك الزوج متعباً مرهقاً فتستقبلينه بالطلبات التي تنوء بها
العُصبة أولو القوة، وليس الرجل الواحد، ولا تكن الابتسامة آخر ما ينتظره الزوج من
زوجته، ولا تنتظري من الزوج أن يبادر في طلب الأشياء بل عليك أن تقرئي ذلك في عينيه،
فموقع الزوجة في رعاية بيت الزوجية مهم وخطير جداً. وصياغة الأسرة وترتيبها يبدأ منذ
اليوم الأول، يوم كانت البنت في بيت الأبوين. فالعلم هدف، وسلاح في الوقت نفسه، وهو مطلب
الشريعة الإسلامية، ولكن لا ينبغي أن تذهب البنت إلى بيت زوجها وهي لا تحسن صناعة قرح من
الشيء، ناهيك عما هو أكثر من ذلك. فلقمة واحدة يأكلها الزوج من إعداد زوجته، تعني له
الكثير من الحب، وماذا بعد الحب؟! قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِيَتَسَكَّنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [12]). فللمرأة دور كبير
في الحياة، حتى في صناعة القرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فالقرآن الكريم يعطيها
الحق أن تكون في مجالس الأعيان، والشورى، والنواب، ومجالس الشيوخ، وأمثالها. والإسلام لم
يلغ دورها منذ اليوم الأول، فكانت تُستشار ويؤخذ رأيها، ومن يقرأ سيرة النبي (ص) قراءة
صحيحة يجد ذلك واضحاً جلياً. وبطني أن هؤلاء الذين ينتقدون الإسلام ويحاولون النيل منه
وانتقاصه في تشريعاته بخصوص المرأة، لو قرأوا الإسلام بعينين مفتوحتين وقلب مشرق نوراني،
لما اتهموا الإسلام تلك التهم الباطلة الجائرة الحاقدة. يقول تعالى: وَالَّذِينَ
اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [13]). ونحن اليوم دخلنا في مرحلة الرزق المشترك
بين الرجل والمرأة، فإن احتاج الزوج إلى زوجته فلتكن هي السند، والعكس بالعكس. فلا داعي
للذهاب إلى المحاكم وإثارة الخصومات في هذا الشأن. ومن المعلوم أن الزوج تجب عليه
النفقة لزوجته، وأن يكرمها، وإكرامها ليس في لقمة العيش وقطعة القماش فقط، بل على
الأقل أن لا تكون أقل مما كانت عليه في بيت أهلها وعشيرتها. أما الأكل والشرب والملبس فهو
مظهر من مظاهر الإكرام، وليس هو الإكرام كله. فمتى ما سما الزوج وارتفع بمستواها وشأنها
المادي والمعنوي ارتفع هو أيضاً وسما، والعكس صحيح. زينب (ع) مثال المرأة القدوة: من
هنا نجد أن زينب (ع) صاحبة هذه الذكرى، لها صفات عظيمة جليلة سامية راقية، وهذه الصفات
لم تحصل عليها بين ليلة وضحاها، إنما حصلت عليها بجهد ومواظبة وترويض وتربية. فالسيدة
الحوراء زينب (ع) لها صفات عديدة بعدد المعصومين الأربعة عشر (ع)، فهي: الحوراء،
والعقيلة، وزينب الكبرى، والطاهرة، وصاحبة الديوان، والغريبة، والمسبية، وأم المصائب،
والعالمة، والمحدّثة، والعليمة، والمحدّثة، والصابرة، والسيدة. فهذه أربع عشرة صفة،

كلها تبين سموها ورفعتها ومقامها الكبير، فهي العالمة غير المعلمة، والفهمة غير المفهمة، والمحدّثة والمحدّثة في الوقت نفسه، وكان الإمام علي (ع) يخصها بوقت يستقطعه من وقته، وهذا مظهر من مظاهر تكريم المرأة في الإسلام. فإنا أصحاب الأقاليم الملتوية، والنوايا السيئة، يا من تسيئون لزینب والزهراء وخديجة وأمّهات المؤمنین، وتسيئون للإسلام أولاً وبالذات: التفتوا وانتبهوا، فليستم أحرص على المرأة من الله تعالى، ولا من رسوله، مهما كنتم. فهذه المرأة العليمة، العالمة غير المعلمة، كان يروي عنها ابن عباس، وبعض الأقطاب من الصحابة، وكانت تجلس للتفسير في بيتها، وكانت تلقب بصاحبة الديوان، وكان يقصدها من أراد فهم بعض آيات القرآن الكريم. أما عبادتها فحدث عنها ولا حرج، يشهد لها ما كانت عليه في أشد الظروف، فقد عاشت محنة كربلاء فلم تترك صلاة الليل، تلك الصلاة المظلومة المضيعة عندنا، مع أنها تفتح أبواب الأرزاق، وتعبّد الطرق. يقول الإمام الحسين (ع) لزینب (ع) ليلة العاشر من المحرم: يا أختاه، لا تنسيني من نافلة الليل. أما نحن فقد لا نوفق لصلاة الفجر، فضلاً عن صلاة الليل. أما فصاحتها فحدث ولا حرج. يقول أحدهم ممن كان في مجلس ابن زياد: ورأيت زينب بنت علي (ع) ولم أر خفرة قط أنطق منها، كأنها تُفرغ عن لسان أمير المؤمنين [14]. أما صبرها، فلا يحتاج إلى برهان ودليل، إلا أنه الصبر المحفوف بالتسليم بقضاء الله وقدره، لا كما يصوره بعضهم، من عدم القبول بالأمر الواقع. كما أنها قدمت مثلاً رائعاً في العناية بإمام زمانها الإمام زين العابدين (ع)، وتدخلت في إنقاذ حياته مرتين، إحداهما في كربلاء، عندما همّ شمر بقتله، فتدخلت ودفعت عنه الموت. والأخرى في الكوفة عندما همّ ابن زياد بضرب عنقه. فهل تنبئ هذه المواقف عن امرأة منكسرة أو امرأة شجاعة، تصارع الصعاب من حولها؟ هذه هي زينب الكبرى التي إذا أردنا قراءتها فلا بد أن نقرأها بشكل صحيح، فهي قدوة المرأة المسلمة المؤمنة، بعد أمها الزهراء (ع). وأما عن بركتها فلا زلنا نراها بأعيننا حتى هذا اليوم، إذ لم يُدفع البلاء عن أطرافها إلا ببركتها، فهي بحقّ كاسحة الإرهاب. نسأل الله سبحانه وتعالى لنا ولكم التوفيق، والحمد لله رب العالمين.